المراكز العلمية والمنارات في الإسلام، ودورها الاجتماعي والتربوي في المجتمع الليبي

دكتور/ إبراهيم أحمد أبوالقاسم/أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

المقدمة

الحديث عن الزوايا تلك المنارات العلمية هو حديث عن تراث وإرث تاريخي له بصمات مضيئة في تاريخ المجتمع الإسلامي، حيث كان من أولى المهام التي اضطلعت بها الزوايا، وحافظت عليها هو تعليم القران الكريم، ونشره بين الناس، وغرس القيم الروحية لدى أبناء المسلمين، وكان للزوايا الصوفية رجال وهبوا أنفسهم لخدمة الإسلام والمسلمين، وجاهدوا وصابروا، وكانوا جنوداً مجهولين في معارك الجهاد ضد الاستعمار الإيطالي الغاشم، وتصدوا لخصوم الإسلام، وإفشال هجمة الإلحاد والفساد والتنصير، وضربوا المثل الأعلى في التمسك بمكارم الأخلاق، والدعوة للحفاظ على مبادئ الإسلام السامية، والتأمل بعمق في خلق السموات والأرض.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار﴾ صدق الله العظيم.

ويتناول البحث الموضوعات التالية، والذي أفردنا له هذا العنوان:

(المراكز العلمية والمنارات في الإسلام، ودورها التربوي والاجتماعي في المجتمع الليبي)

1- المسجد.

2- الرباطات.

3- الزوايا الصوفية.

4- زاوية المحجوب.

المنارات ومراكز العبادة في الإسلام:

أولا: المسجد

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيه اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال﴾ صدق الله العظيم.

لم تقتصر مهمة المسجد على أداء العبادات الصلاة وغيرها فحسب، بل كان المسجد منذ صدر الإسلام منتدى يجتمع فيه المسلمون يتدارسون ويتناقشون في أمور دينهم ودنياهم[1]

وللمساجد في تاريخ الإسلام مكانة مقدسة باعتباره مكان العبادة، ومركز إشعاع للفكر والثقافة الإسلامية، وفيه يجتمع الفقهاء، وعلماء التفسير والحديث واللغة، وتتشكل داخل المساجد حلقات الذكر والدرس التي تجمع الطلاب مع شيوخهم، ومن خلال ذلك صقلت المواهب، وتخرج العلماء، وازداد عدد العلماء المؤهلين الذين ساهموا في نشر الدعوة الإسلامية، وإنارة الطريق أمام أبناء الإسلام.

وفي عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أتيح لفقراء المسلمين طلب العلم بالمسجد النبوي، حيث (بنى الرسول الصُفة، وهي مكان مظلل في شمال المسجد يأوي فقراء المسلمين الذين حبسوا أنفسهم لطلب العلم)[2].

وفي ضوء حاجة المسلمين إلى شتى العلوم، ومواكبة تطور العصر، حدث تطور على بعض المساجد، فنجد جامع الأزهر الشريف يتحول -بالإضافة إلى دوره المقدس كمكان للصلاة والعبادة، وملتقى علماء الإسلام- إلى جامعة تضم العديد من الكليات في مختلف العلوم الإنسانية، كذلك تحول مسجد القرويين بالمغرب إلى مركز هام للثقافة الإسلامية، وساهمت جامعة القرويين بتخريج الكثير من العلماء المسلمين، كذلك جامع الزيتونة في تونس الذي تحول إلى جامعة تشمل مختلف العلوم، وسميت الجامعة الزيتونية.

وكان المسجد عادة يلحق به زاوية تعلم التلاميذ القرآن واللغة العربية.

---

(1) بيوت الله مساجد ومعاهد كتاب الشعب 1960 ص22

(2) حسن ابراهيم حسن تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ج4 ط اولى 1997 مكتبة النهضة العربية ص421

ثانيا: الرباطات

الرباطات جمع لكلمة رباط، وقد استحدث هذا النظام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، حيث أنشئت عدة رباطات على مسافات محددة بحيث يتيح التواصل فيما بينها عن طريق الرؤية الليلية بإيقاد النيران، والفكرة تعود إلى النجاحات التي حققتها الفتوحات الاسلامية، ونتيجة التوسع الجغرافي للدولة الإسلامية، حيث أصبح دور الحصون والحاميات يقتصر مهامها على حماية المدن والثغورمن هجمات العدو[3]1، لذلك تم التفكير في إنشاء الرباط الذي أسندت إليه مهمة المراقبة وحماية الثغور والحدود الإسلامية. وقد انتشرت الرباطات من المغرب إلى الإسكندرية، وجنوباً إلى خليج غانا.

تتحدث إحدى الدراسات التاريخية (أن الساحل من سبتة إلى الإسكندرية كان عبارة عن جبهة بحرية تتوالى فيها الرباطات على مسافات متقاربة، بحيث يترائى فيها النيران من فوق الأبراج، وكانت تؤلف سوراً دفاعياً متيناً)[4]، ويقترن الرباط في الغالب ببرج أشبه ما يكون بالصوامع المعروفة في بلاد المغرب العربي، وهي مربعة الشكل، ويستخدم لإيقاد النيران في أعلاه، وكان لانتشار الرباطات نتائج مهمة، حيث أقيمت حول الرباط تجمعات سكنية، يتولى الرباط تعليم الأبناء، وتمكين الأهالي من أسباب العيش[5]، وقد أطلق على الرجال الذين يرابطون في هذا المكان بالمرابطين، ومن المهام الدينية التي استخدم فيها الرباط الإعلان عن المناسبات الدينية مثل بداية شهر رمضان، وحلول عيد الفطر، وعيد الأضحى، وذلك من خلال إيقاد شعلة إيذاناً بحلول العيد، حيث تتلقاها الرباطات الأخرى الواحد تلو الآخر، كما كان للرباطات دوراً اجتماعي في حماية القوافل، وتقديم الخدمات للمسافرين، وتعتبر الرباطات خطوة سبقت ظهور وانتشار الزوايا الصوفية.

ثالثا: الزوايا الصوفية

الزاوية كلمة مصدرها الفعل انزوى، ينزوي، أي اتخذ ركنا من أركان المسجد؛ لغرض الاعتكاف والدراسة، وقد أقيمت بعض المساكن ملحقة بالمسجد؛ لتمكين المعتكفين

---

(3)1111حسن ابراهيم حسن نفس المصدر ص437

(4)محمد عبدالهادي شعيرة الرباطات الساحلية الليبية الاسلامية - بحث مقدم لمؤتمر ليبيا في التاريخ- كلية الاداب - الجامعة الليبية مارس 1962

(5)رأفت غنيمي الشيخ ، دراسات إفريقية في التاريخ الحديث والمعاصر دار الكلمة للنشر القاهرة 2011 ص284

والدارسين من أداء نشاطهم في ظروف مريحة، ثم تطورت هذه المساكن فيما بعد إلى ما يعرف بالزوايا التي انفصلت عن المسجد، وتوزعت في عدة مناطق، حيث بدأت فيها حلقات الذكر، وتحفيظ القرآن وعلوم الدين، وأصبحت الكثير من الزوايا مزاراً لمشائخ الطرق الصوفية[6]1.

وقد لعبت الزوايا دوراً بالغ الأهمية في تعليم أبناء المسلمين والحفاظ على كتاب الله، وفي غياب المدارس ودور العلم في أغلب البلاد الإسلامية، خاصة في فترات الاستعمار الذي ابتليت به ديار الإسلام كانت الزوايا والكتاتيب الفرصة الوحيدة للتعليم وتحفيظ القرآن، وكانت الزوايا تبنى بجهود الأهالي، ومن خلال تبرعاتهم، أما الأرض التي تقام عليها الزاوية فعادةً تكون هبة من إحدى القبائل، ويراعى في إنشاء الزاوية اختيارالمكان المناسب الذي يوفر لها الأمن والأمان[7].

وتضم الزاوية عدة خلوات للطلبة والضيوف، وسكن لشيخ الزاوية، وبالنظر إلى المكانة التي كانت تحظى بها الزوايا كانت تتلقى الهبات والتبرعات التي تشكل المصدر الأساسي لمواردها المالية من الخيريين الذين يقصدون من وراء ذلك التقرب من الله؛ طلباً للرحمة والبركة[8].

(الزاوية في الحقيقة إنما هي بيت من بيوت الله، ومسجد من مساجده، والزاوية إذا حلت بمحل نزلت فيه الرحمة وتعمر بها البلاد، ويحصل بها النفع لأهل الحاضرة والبادية، لأنها ما أسست إلا لقراءة القرآن).

ولم يقتصر دور الزوايا على الجانب الديني، بل كان لها أدوار أخرى مهمة، حيث تفاعلت مع الأحداث التي عاشتها البلاد الإسلامية في مقاومة الاستعمار، ومناصرة المجاهدين.

مشاركة الزوايا في الجهاد ومقاومة الاستعمار:

كان للزوايا الصوفية مشاركة في الدفاع عن ديار الإسلام، وفي المعارك ضد الاستعمار، والبعض من السادة الصوفية استشهد في ميدان المعارك حاملين شعلة النضال المقدس ضد

---

(6)1 حسن ابراهيم حسن نفس المصدر ص 421

(7) شعبان ، ماهر عطية دراسات وبحوث في التاريخ الافريقي الحديث دار المعرفة الاسكندرية ص253

(8) الصلابي ، علي محمد الثمار الذكية للحركة السنوسية في ليبيا مؤسسة اقراء للنشر القاهرة ص20

المعتدين على حرمات الإسلام، نذكر من هؤلاء على سبيل الذكر: (الشيخ ساعد التباني) الذي خلف الشيخ المدني بزاويته في مصراتة، والذي قرر الانتقال إلى تونس مع بعض المريدين للجهاد إلى جانب أشقائهم في تونس ضد الاستعمار الفرنسي، وقد استشهد أثناء تلك المعارك ضد الغزاة الفرنسيين بالأراضي التونسية[9].

وبحكم الامتداد الجغرافي للأراضي الليبية غرباً نحو تونس، وشرقاً نحو مصر، وجنوباً نحو الجزائر وتشاد ومالي، وعدم وجود موانع طبيعية تعيق تنقل الأفراد، لذلك كان تفاعل رجال الزوايا الصوفية في ليبيا مع الأحداث التي عاشها المسلمون في تلك البقاع، منها المجاهد محمد الكيلاني الذي خرج من مدينة درنة مع مجموعة من مريديه للالتحاق بالمسلمين في مصر؛ لمقاومة حملة نابليون العسكرية على مصر عام 1798م، ودخل في معارك حامية ضد الفرنسيين الغزاة، كان لها الأثر الكبير في نفوس المسلمين بمصر[10]، ومن شيوخ الصوفية الذين دافعوا على حرمة الإسلام الشيخ عبدالله الشعاب، الذي شيد مسجدا وألحق به زاوية الشعاب قبالة البحر؛ لغرض التصدي لحملات أعداء الإسلام الزاحفين من البحر، ويعتبر هذا العمل خط دفاع متقدم لمواجهة العدو، أما شيخ زاوية القصور الشيخ عمر المختار فقد كان له صولات ضد الجيش الفرنسي في تشاد، ثم تحول للجهاد ضد الجيش الإيطالي، وظل يقود المجاهدين الذين ألحقو هزائم نكراء بالغزاة الإيطاليين إلى أن تمكن العدو من إلقاء القبض عليه، وتم إعدامه شنقا في مدينة سلوق يوم 16 سبتمبر 1931م.

ومفهوم الجهاد لدى الزوايا الصوفية، كما يصفه أحد الباحثين: (الجهاد هو التصوف، والتصوف هو الجهاد، جهاد النفس حتى تتخلى عن كل وصف دني، وتتحلى بكل وصف سني، وجهاد العلم بنشره بين المسلمين بالحكمة والموعظة الحسنة، وجهاد العدو إن أطل برأسه القبيح ليسعى في الأرض فساداً)[11].

لقد كانت هذه المبادئ تثير الحذر والخوف لدى المستعمرين الذين من سياستهم محاربة المقدسات الإسلامية التي يرون فيها خطراً على وجودهم، ففي الجزائر كانت المساجد

---

(9) القطعاني ، احمد عبدالسلام الأسمر دار الكتاب الليبي بنغازي 1992م ص12

(10) بعيو ، مصطفى عبد الله بحث ألقي في المؤتمر التاريخي الذي نظمته كلية الاداب الجامعة الليبية 1986 عن كتاب عبد السلام الأسمر لأحمد القطعاني

(11) القطعاني ، احمد نفس المصدر ص14

واالزوايا هدفاً للجيش الفرنسي، ومن الجرائم التي ارتكبها الفرنسيون ضد المقدسات الإسلامية، قيام قائد عام الجيش الفرنسي الجنرال (روفيقو Rovego) بتحويل أكبر مسجد في الجزائر العاصمة إلى كنيسة[12]، بالإضافة إلى تحويل مساجد أخرى في مناطق متباعدة إلى كنائس، وقد وصف أحد الكتاب الفرنسيين الزوايا في الجزائر بأنها: (مسجد وملجأ وقاعة اجتماعات ومكتبة ومستشفى، ومكتب دعاية تتبادل فيه الأنباء)[13].

ونتيجة هذا المفهوم لدى المستعمريين الفرنسيين وجهوا ضربات مؤلمة للزوايا الصوفية بتهمة تورطها في كل الانتفاضات التي اندلعت في البلاد.

وجاء في كلمة للجنرال الفرنسي والتي تظهر مدى الحقد والكراهية للزوايا الصوفية، حيث وصفها بأنها: ملاجئ لغلات الدين والدعاة المتعصبين، وهي بؤرة تمرد[14].

ومن الإجراءات التعسفية التي اتخذتها السلطات الفرنسية ضد الزوايا الصوفية الاستيلاء على الأموال المحبسة، ومصادرة أراضي الوقف التي تعتبر من أملاك الزوايا ومصدر عيشها.

الزوايا في خدمة الحجاج وعابري السبيل:

من الأدوار المهمة التي لعبتها الزوايا الصوفية تقديم الخدمات لركب الحجاج وعابري السبيل، حيث كان ركب الحجيج المغاربة ينطلق من المغرب الأقصى ماراً بالأراضي الليبية في اتجاه الأراضي المقدسة، ونظراً لانتشار الزوايا في الكثير من المناطق في ليبيا، فكانت فرصة متاحة لركب الحجاج ليتوقفوا عندها، ويأخذوا قسطاً من الراحة في ظروف آمنة توفرها الزوايا، بالإضافة إلى تزويدهم بالمياه والطعام الذي يشارك في توفيره الأهالي المجاورين للزاوية، تقرباً لله سبحانه وتعالى، وتكريماً لحجاج بيت الله الحرام.

جاء في شهادة الرحالة التيجاني المتوفي سنة 721هـ صاحب كتاب رحلة التيجاني أهمية الزوايا الصوفية، حيث يصف زاوية أولاد سهيل بالزاوية الغربية، وكيف كانت تكرم المارين من المسافرين للحج أو التجارة، حيث تهيئ لهم الطعام والمبيت[15].

---

(12) الاربد ، عبد الحكيم المحاولات الاستعمارية لتقويض الاسلام في الجزائر مجلة الدعوة الاسلامية 1988 ص360

(13) الاربد عبد الحكيم المصدر نفسه

(14) الاربد ، عبد الحكيم نفس المصدر ص364

(15) القطعاني احمد نفس المصدر ص19

والزوايا الصوفية التي أنشئت في ليبيا، وعرفها المجتمع الليبي وتفاعل معها استطاعت أن تنتشر في الكثير من المناطق في ليبيا، وعلى وجه الخصوص في الأرياف والبوادي، ونجد أن هذه الزوايا بعد أن نجحت في ليبيا وحققت أهدافها أخذت تمتد إلى خارج ليبيا، فنجدها تنتشر في عدة بلدان، في تونس والجزائر وتشاد ومصر ومكة المكرمة[16]، وكان للزوايا السنوسية دورا هاما في ذلك؛ نظرا لما توفر لديها من إمكانيات مادية وبشرية ساعدتها على الانتشار والدعوة[17]. ومن حيث الموقع (أغلب الزوايا يختار لها أجمل البقاع وأخصب الأراضين، وفيها الآبار التي لا تنزع من كثرة مائها)[18].

رابعا: زاوية المحجوب

زاوية المحجوب من أهم الزوايا في ليبيا التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ المجتمع الليبي في المجال التربوي والتعليمي، وفي المجال الاجتماعي، ويعود نسبها إلى الشيخ الجليل إبراهيم المحجوب المتوفي في مصراتة سنة 1493م، وقد أطلق على المنطقة التي فيها الزاوية اسم زاوية المحجوب، وتشكل مساحة جغرافية تقع غرب مدينة مصراتة.

ساهمت زاوية المحجوب في وقت كانت فيه البلاد تفتقر إلى دور العلم في تخريج المئات من الطلبة الذين حملوا كتاب الله في صدورهم، وتفقهوا في الشريعة الإسلامية، وتحولوا الى معلمين ومشائخ يدرسون ويحفظون كتاب الله لأبناء المسلمين.

ولندع أحد خريجي زاوية المحجوب يروي قصة السنوات التي قضاها بالدراسة في الزاوية، من حيث التعليم وظروف الإقامة وتعلم بعض الصناعات التقليدية، وكيف هاجر إلى تونس ليحمل الرسالة المباركة في تعليم وتحفيظ القرآن الكريم في عدة مناطق من البلاد التونسية[19].

الشيخ محمد ميلود حسين الأصيبعي:

خريج زاوية المحجوب – مصراتة

---

(16) ن.ا.بروشين تاريخ ليبيا في العصر الحديث ترجمة د. عماد غانم ، منشورات مركز الجهاد 1991 ص324

(17) الصلابي، علي محمد تاريخ الحركة السنوسية في افريقية ط3 دار المعارف بيروت ص90

(18) ن.ا.بروشين نفس المصدر ص326

(19) رواية الشيخ محمد ميلود الاصيبيعي

تاريخ الميلاد:1926م الأصابعة الجبل الغربي

تاريخ الوفاة: مارس 2001 م طرابلس

منذ ولادته عاش في بلدته الأصابعة في ظروف صعبة داخل أسرة فقيرة لم يكن لها أي مورد رزق سوى عدد قليل من الماعز وشجيرات التين التي تتأثر بسقوط الأمطار، وكانت البلاد بصفة عامة مكبلة بالاستعمار الإيطالي الغاشم الذي سخر كل مكاسب البلاد لأبناء إيطاليا، وترك الليبيون يعانون من الفقر والمرض والجهل، وانتزع منهم أملاكهم وأراضيهم، وهجر ونفى الكثير منهم خارج الوطن.

شب الشيخ محمد وهو الفتى الصغير في هذه الظروف الكئيبة الحالكة، ولم تكن فرص التعليم متوفرة بالمنطقة، حتى الكتاتيب لم تكن موجودة [20] شأنها شأن الكثير من المناطق في ليبيا، ونتيجة ذلك عم الجهل لدى السكان، حتى أن الكثير عاشوا وهم يجهلون القراءة والكتابة، وهكذا أراد الاستعمار الإيطالي، لأنه يدرك أن التعليم هو الذي يوقظ الشعوب ويجعلها تصنع مستقبلها [21].

مر الشيخ محمد في حياته بمراحل أغلبها كانت قاسية، وأولها اليتم حيث توفي والده وهو لم يتجاوز العاشرة من عمره، وبقي في رعاية والدته وأخواله، وكان يتمتع بالذكاء والنشاط مما جعله مقرباً من خاله أحمد الذي كان يجلس إليه ويستمع منه لقصص ونوادر يعرفها أهل البدو، ويشاء الله أن يفتح الأمل أمام هذا الفتى، فقد علم أن بعض أبناء المنطقة قد سافروا للدراسة في زاويتي زاوية عبدالسلام الأسمر وزاوية المحجوب، ولكن الذي حز في نفسه أن هؤلاء الأبناء الذين سافروا تكفلت أسرهم بتكاليف ومصاريفهم الشخصية، بينما هو عاجز عن توفير الحد الأدنى لمواجهة مصاريف الطريق، وهو يعلم أن هذه الرحلة في حاجة إلى الزاد والمصاريف ولكنه لم يخضع لليأس، وأصر على الوصول إلى مبتغاه في طلب العلم والمعرفة، وبدأ التفكير والبحث عن إيجاد الوسيلة التي تمكنه من الوصول إلى مبتغاه، وقد سهل الله له ذلك من خلال التعرف على شخص يسوق الأغنام إلى طرابلس وطلب مرافقته ولم يمانع صاحب الغنم بل رحب به، وبكل عطف حدد له موعد السفر

---

(20) الكتاتيب وأن وجدت، فوجودها حيث التجمعات السكانية

(21) مجلة الشهيد العدد الرابع 1983 منشورات المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية ص263

الذي سيكون مشياً على الأقدام وبعد عدة أيام وصلوا إلى طرابلس، حيث أمضى يومين في طرابلس يبحث عن الوسيلة التي تمكنه من الوصول إلى زليتن ليلتحق بزاوية عبد الأسمر، وصادف أن تعرف على شاحنة نقل بضائع سوف تسافر إلى زليتن في الصباح، فطلب من السائق أن يسمح له بمرافقته إلى زليتن ووافق السائق خاصة عندما عرف أنه مسافر لطلب العلم وحفظ القرأن الكريم.

وصل زليتن والتحق بزاوية عبد السلام الأسمر، وبعد مضي شهرين كان على اتصال بأحد أبناء منطقته بزاوية المحجوب في مصراتة الذي شرح له الدراسة والإقامة والمعيشة بالزاوية، ولاحظ الفارق بين الزاويتين فيما يتعلق بتقديم وجبات الأكل وهو شئ مهم للطالب الوافد بالإضافة إلى وجود بعض الطلبة من منطقته، لذلك قرر الالتحاق بزاوبة المحجوب، ومنذ وصوله انضم الى الخلوة التي كان بها بعض رفاقه من الأصابعة، وهو ما جعله يشعر بالجو العائلي، لاسيما وأنه أول مرة يعيش بعيدا عن أسرته.

وبدأ الشيخ محمد رحلة جديدة أطلق عليها الرحلة المباركة التي تمكن من خلالها من حفظ القرأن الكريم وايجادة اللغة العربية.

ظل الشيخ محمد يتذكر الأيام الأولى التي بدأ فيها الدراسة بزاوية المحجوب، فيذكر أنه كان نجولاً، لاسيما وأنه يعيش داخل مجتمع طلابي لم يتعود عليه، وأن أغلب الطلبة متقدمين عليه في الدراسة، وهو سيبدأ من نقطة البداية، لكن بالرغم من صغر سنه كانت لديه الإرادة للتغلب على الصعاب، خاصة وأنه حقق الوصول الى الحلم الذي كان يراوده وهو الالتحاق بدور العلم.

بدأ الدراسة وتحصل من الزاوية على اللوحة التي تستخدم في الحفظ وهو الأسلوب التقليدي المستخدم في الزوايا والكتاتيب، ويذكر أن كل شئ داخل الزاوية يتم تحت نظر شيخ الزاوية، ومن الصعوبات التي واجهها منذ بداية الدراسة عدم وجود مصدر لمصاريفه الشخصية فأسرته هاجرت خارج البلاد إلى تونس، وليس له أحد يمكن أن يساعده في ذلك، لكن فضل الله واسع فقد وجد في الزاوية بعض الطلبة يمارسون في أوقات الفراغ بعض الصناعات التقليدية مثل تطريز الفرامل، وصناعة الطاقية المصراتية، وبدأ يتدرب على هذه الحرف من زملائه، وبسرعة أتقن صناعة الطاقية المصراتية، وكان ينزل إلى

السوق لشراء لوازم صنع الطاقية مثل خيوط غزل الصوف، وكلما أنجز عدد من القطع يتم بيعها لأحد التجار بسوق الرباع وسوق اللفة، وبذلك أصبح له مورداً مالياً يواجه به حاجته الضرورية.

وجاء في رواية الشيخ محمد أن ذلك يعود الفضل فيه إلى الله ثم لزاوية المحجوب التي شملت طلابها بالرعاية وأتاحت لهم الفرص المناسبة للنشاط والدراسة في أجواء مشجعة، ويضيف شيئاً آخر مهم ومؤثر في حياة الطالب، حيث أن الكثير من الطلبة وافدين من مناطق بعيدة مما يجعلهم يشعرون بالغربة والحنين إلى الأهل، لذلك سمحت الزاوية للطلبة بالخروج في نزهة ترفيهية بين الحين والآخر خاصة في فصل الربيع؛ لغرض الترويح عنهم وتجديد نشاطهم، وظل الشيخ محمد محتفظاً بذكريات طيبة عن الفترة التي قضاها بزاوية المحجوب، وفي جلساته الخاصة كان يدعو الله أن يجعل كل ما قدمه أبناء زاوية المحجوب من عون ومساعدة للطلبة في ميزان حسناتهم.

وفي عام 1947 م غادر الشيخ محمد زاوية المحجوب بعد أن أكرمه الله سبحانه وتعالى بحفظ القرآن كاملاً مع إيجادة اللغة العربية، وبمجرد مغادرته الزاوية شده الحنين لرؤية والدته التي هاجرت إلى تونس مع أسرة شقيقها، لكن ذلك لم يكن بالأمر السهل فالرحلة إلى تونس شاقة وعسيرة، فلا توجد وسائل نقل مباشرة، وكانت الحدود التونسية مكبلة بالقوات الاستعمارية الفرنسية، وبعد استشارة بعض المتقدمين في السن قرر السفر مشياً على الأقدام عبر المسالك البرية البعيدة عن البوابات وحراسات الحدود، وبدأ رحلته متجشماً مشاق ومخاطر السفر، وكم من مرة بات مختبئاً تحت شجرة، وكم من مرة اشتد به العطش لولا أحد رعاة الغنم الذي أنقذه من الهلاك، وكان تعرفه على رعاة الغنم بادرة خير، حيث اكتشف أن رعاة الغنم ينتشرون بالقرب من المناطق الحدودية لرعي أغناهم، وهذه المناطق تمتد من قبائل النوايل والصيعان إلى الحدود التونسية، حيث قبيلة ورغمة التونسية، واعتاد السكان في هذه المناطق التنقل بعيداً عن البوابات والمناطق العسكرية، وكانت هذه فرصة للشيخ محمد حيث تعرف على بعض الرعاة وطلب مرافقتهم، وهم خبراء في معرفة المسالك الآمنة حتى الحدود التونسية، وفعلاً بفضل هؤلاء تمكن من الدخول إلى الأراضي التونسية، ومنها إلى أقرب قرية وهي قرية بن قردان، واستضافه رجل فاضل

من أهالي بن قردان خاصة عندما عرف أن الشيخ محمد حافظ لكتاب الله، فأحاطه بالرعاية والكرم، وأمضى عنده عشرة أيام انتظارا لإيجاد وسيلة نقل آمنة توصله إلى صفاقس، وفعلاً وجد هذا الرجل الشهم سيارة نقل متجهة إلى صفاقس، فاتفق معه ودفع له الأجرة، وودع ضيفه بعد أن أعطاه طاقية تونسية حمراء حتى تبعده عن أنظار الشرطة الفرنسية، وطلب من الشيخ محمد أن يعود إليهم في بن قردان بعد زيارة والدته؛ ليتولى تحفيظ القرآن لأبناء المنطقة، وأكد على ذلك بعبارة تونسية مؤثرة ظل الشيخ محمد يتذكرها (ماتنساش يا سيدي المدب).

وصل صفاقس وكان يسكن هذه المدينة الكثير من العائلات الطرابلسية المهاجرة، ومن خلالهم تعرف على كيفية الوصول إلى منطقة زغوان التي يقيم بها أقاربه وبعد هذه الرحلة الطويلة والشاقة كان أمام مجموعة من الخيام تسكنها بعض العائلات ومن بينها أسرته، وما أن عرفوا أن القادم من طرابلس هو محمد ميلود حتى هرعوا لاستقباله، وكانت والدته من شدة الفرح والمفاجئة قد اختلط عندها البكاء بالزغاريد، وكانت لحظات مؤثرة جداً حسب ما جاء في رواية الشيخ محمد، وما أن سمع أهالي المنطقة بوجود فقيه (مدب) قادم من طرابلس حتى هرعوا إليه؛ لأنهم تعودوا قطع المسافات للوصول لأحد الفقهاء لغرض التداوي، ورأفة بهؤلاء المرضى قام الشيخ محمد بعمل الرقية الشرعية لبعضهم بدون مقابل مادي، ورفض عمل الأحجبة وغيرها من طرق العلاج التي تعودوا عليها من قبل المشعوذين، ورأى في ذلك خروجاً على شريعة الإسلام، وقد استفاد الأهالي أثناء وجوده بتعليم الكبار بعض سور القرآن الكريم، وإرشادهم إلى كيفية أداء الصلاة بالصورة الصحيحة، أما الأبناء الصغار فاجتهد في تعليمهم ما تيسر من القرآن الكريم مستغلاً بذلك فرصة وجوده معهم، والتي استمرت لمدة ستة أشهر.

وفي هذه الأثناء كان أحد الشيوخ الطرابلسيين الفقيه محمد المرابط وهو من الذين درسوا بزاويتي عبد السلام الأسمر وزاوية المحجوب حسب رواية الشيخ محمد ميلود يقوم بالتعليم، وإدارة زاوية قرآنية بمنطقة فندق الجديد التي تبعد عن العاصمة تونس بمسافة ثلاثين كيلو متر، والتي تحتضن الكثير من طلبة القرآن الكريم، وبمجرد ما سمع الفقيه محمد المرابط بوجود الشيخ محمد ميلود في تونس حتى تواصل معه، وبذلك التحق الشيخ محمد بمنطقة

فندق الجديد ليصبح معلماً للقرآن الكريم بتونس، إلى جانب صديقه الشيخ محمد المرابط، وزاد عدد الطلبة، وأصبح بعضهم حافظاً للقرآن الكريم كاملاً.

وبعد سنة واحدة توفي الشيخ محمد المرابط إثر حادث مرور، وبعد وفاته رحمه الله أصبحت المهمة في يد الشيخ محمد ميلود الذي تولى المهمة بكل أمانة، واختار من بين الطلبة الذين قطعوا شوطاً مهماً في حفظ القرآن الكريم من يشاركه في تحفيظ الطلاب الذين تعددت مستوياتهم، وقد استفاد من التنظيم الدراسي الذي ألفه بزاوية المحجوب.

أمضى الشيخ محمد خمسة سنوات في تونس كانت حافلة بالنشاط، وخدمة كتاب الله، وكان سفير لزاوية المحجوب في تقاليدها وفي منهجها الدراسي والتربوي، وفي عام 1951م عاد إلى طرابلس، ومنها إلى بنغازي حيث أخبره أحد زملائه أن بعض المناطق في المنطقة الشرقية في حاجة لبعض الشيوخ يعلمون القرآن الكريم.

وبالفعل وصل بنغازي ومنها إلى منطقة الأبيار التي استقر بها، وكان أهلها متعطشون إلى تعلم القرآن الكريم.

وهكذا بدأ الشيخ محمد مسيرة جديدة بمنطقة وجد في أهلها الترحيب والكرم، واحترامهم لحامل كتاب الله، خاصةً وقد عرفوا فيه الإنسان الطيب الخلوق، وكثيراً ما كان يستشيره البعض في حل المشاكل الاجتماعية والأسرية وفقاً لما تنص عليه الشريعة الإسلامية.

وبعد أن أمضى سنوات طويلة في المنطقة الشرقية عاد إلى طرابلس، ونظراً لتقدمه في السن لم يعد قادراً على ممارسة التعليم، وفي السنوات الأخيرة ألم به المرض، ولكن معنوياته كانت عالية، ذاكراً الله وملازماً لقراءة القرآن، وفي شهر مارس عام 2001م انتقل إلى جوار ربه بعد رحلة طويلة من العطاء والنشاط خدمة لكتاب الله العزيز.

رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه الفردوس الأعلى مع الشهداء والصديقين، وحسن أولئك رفيقاً.

الخاتمة

كان للزوايا بصمات مضيئة في تاريخ المجتمع الليبي، فهي تمثل تاريخاً وإرثاً ثقافياً ومعرفياً له أهميته، ويمكن أن نلخص دورها فيما يلي:

1- وجود الزوايا في الميدان التعليمي ساعد على انتشار التعليم، خاصة في البوادي والأرياف، ومحاربة الجهل وغرس القيم والأخلاق الحميدة، التي نص عليها القرآن الكريم، وبفضل الزوايا زاد عدد حفظة القرآن الكريم، وبرز شيوخ وعلماء أجلاء، كانوا نتاجا للزوايا الصوفية، كما ساهمت في إعداد الكثير من الطلبة من خلال حفظهم أجزاء كثيرة من القرآن الكريم، للالتحاق بالمراكز العلمية بالخارج، مثل الجامع الأزهر، وجامع الزيتونة.

2- في المجال الاقتصادي: كان لانتشار الزوايا الدور الإيجابي في تأمين القوافل التجارية، وقوافل الحجاج الذين وجدوا فيها استراحة آمنة لأخذ قسط من الراحة والتزود بالمياه.

كما ساعد انتشار الزوايا على استقرار السكان، لتوفر الأمن وضمان تعليم أبناءهم .

وكان للكثير من الزوايا نشاط في المجال الزراعي من خلال استخدام أراضي الوقف، ويشكل هذا مورداً هاماً للزوايا للقيام بنشاطها وتحقيق أهدافها.

3- في الميدان الاجتماعي: عملت الزوايا على رأب الصدع بين الأفراد والعائلات والسعي وراء الصلح، وحل المنازعات بين الأطراف المتنازعة بطريقة الود والإقناع، وبما يتماشى مع ما نصت عليه مبادئ الإسلام.

4- في ميدان المقاومة: كان للزوايا رجال وهبوا أنفسهم لخدمة الإسلام والمسلمين، وجاهدوا وصابروا وكانو جنودا مجهولين في معارك الجهاد ضد الاستعمار الإيطالي الغاشم، وتصدوا لخصوم الإسلام، وضربوا المثل الأعلى في التمسك بمكارم الأخلاق والدعوة للحفاظ على مبادئ الإسلام السامية.

المصادر والمراجع

الكتب:

- أبو القاسم، إبراهيم أحمد، المهاجرون الليبيون بالبلاد التونسية 1911-1952م
- القطعاني، أحمد عبدالسلام، الأسمر دار الكتاب الليبي – بنغازي 1992م
- الصلابي، علي، تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا ط 3 دار المعارف بيروت
- الصلابي ، علي، الثمار الزكية للحركة السنوسية في ليبيا مؤسسة اقرأ للنشر القاهرة

- حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط أولى، 1997م مكتبة النهضة المصرية

- الشيخ، رأفت غنيمي، دراسات افريقية في التاريخ الحديث والمعاصر، دار الكلمة للنشر القاهرة 2011م

- عطية، شعبان ماهر، دراسات وبحوث في التاريخ الافريقي الحديث، دار المعرفة الاسكندرية.

- ن. أ. بروشين، تاريخ ليبيا في العصر الحديث، ترجمة عماد غانم منشورات المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية 1991 م

الدوريات:

- مجلة الوثائق والمخطوطات، العدد الثاني 1987 م منشورات المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية.

- مجلة الدعوة الإسلامية طرابلس 1988 م